

الجدل في المنطق الأرسطي.. وأعمال الفلاسفة والمتكلمين

■ إمام عبد الفتاح إمام

أولاً - تمهيد:

الجدل مصطلح من أهم المصطلحات الفلسفية وأقدمها وأشدها إثارةً للضجيج والاختلاف في الرأي، لا سيما وأنه قد صاحب الفلسفة منذ بدايتها الأولى وحتى الفلسفات الحديثة والمعاصرة، وقد استمد اسمه من الفعل اليوناني الذي يعني «يحاور»، ومن ثَمَّ فقد كان معناه في البداية «فن الحوار»، والمجادلة والحجج والمناقشة، والمناظرة، والقياس الكاذب... إلخ.

وهو يكتب أحياناً باسمه اليوناني «الديالكتيك» جمعاً مرةً Dialectics، ومفرداً مرةً أخرى Dialectic. واهتم به كثرة كثيرة من الفلاسفة والمفكرين كان أعظمهم أرسطو (384 - 322 ق.م) في العصور القديمة؛ لأنه جمع معانيه، وجعله قسماً في منطقته، كما ناقش جدل زينون في كتابه «علم الطبيعة»، ومع ذلك فهو لم يعطه المكانة الرفيعة التي كانت عند أستاذه أفلاطون. أما في العصور الحديثة والمعاصرة فقد كان هيغل (1770 - 1831م) أعظم

■ أستاذ في قسم الفلسفة بعين شمس، مصر.

الفلاسفة الذين اهتموا بالجدل وكتب عنه كثيراً وباهتمام شديد حتى سُمِّي الفيلسوف الجدلي، كما أثر في الفلسفات التالية عليه لا سيما الفلسفة الماركسية والوجودية على اختلاف لمعنى «الجدل» في الفلسفتين مع اعترافها بفضل هيغل الكبير عليهما.

ومن هنا فقد تعددت أطواره أو مراحلها: فكانت أولى مراحلها في الفلسفة اليونانية مع «المعلم الأول»¹ أرسطو ومدرسته المشائية². وسوف نتحدث عن مراحل الجدل على النحو التالي:

المرحلة الأولى: الفلسفة اليونانية

ليس في استطاعتنا أن نتحدث عن الجدل في المنطق الأرسطي من دون أن نتحدث عن فلاسفة اليونان الذين اهتموا قبله بالجدل وأولهم زينون الأيلي³.

أ - زينون الأيلي⁴:

كان أرسطو هو الذي ذكر لنا أن «زينون هو مؤسس الجدل»، فما الذي كان يعنيه بهذه العبارة؟

زينون الأيلي هو تلميذ بارمنيديس (ويروي ديوجنس في المجلد الثالث من كتابه أنه ابن بارمنيديس بالتبني) - وهو المدافع الأول عن مذهب أستاذه الذي أحدث ضجة كبرى في بلاد اليونان، تصدى لها زينون بعقريّة ناقد مستخدماً الجدل في هذا الدفاع، فمن المسلّم به أنه استخدم الطريقة

1 - لُقّب أرسطو بهذا اللقب لشدة ثقافته الموسوعية، فقد كتب في جميع العلوم الطبيعية (علم الطبيعة - علم الفلك - علم الحياة - علم النفس - السياسة - علم الفلسفة - المنطق - الخطابة... إلخ).

2 - جاءت التسمية من أن أرسطو اعتاد أن يمشي في حديقة مدرسته (اللوقيون) ويتبعه تلاميذه فسميت مدرسته بالمشائية، ولقب أتباعه بالمشائين.

3 - نسبة إلى مدينة إليا.. Elea في غرب إيطاليا التي نشأت فيها مدرسة أستاذه عام 540 ق.م.

4 - لاحظ أنه غير زينون الرواقي. راجع بالنسبة لزينون الأيلي كتاب ديوجنس اللائرتي «حياة مشاهير الفلاسفة» المجلد الثالث، ص125؛ وعن زينون الرواقي، الكتاب نفسه المجلد الثاني ص115، من ترجمتها العربية. وقد نشره المركز القومي للترجمة بالقاهرة عام 2006.

الجدلية في نقد اعتراضات الخصوم، وإن كنا لا نستطيع أن نقطع بأنه استخدم كلمة «الجدل» فعلاً، لعل ذلك يرجع إلى أن الأثينيين لم يعتادوا تأليف الكتب في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد. ومن هنا فقد يجوز القول بأن أفلاطون هو أول مَنْ ذكر هذه الكلمة صراحة في محاوراته. وأياً كان الأمر فإن علينا أن نعود إلى الطريقة التي استخدمها زينون وجعلت أرسطو يقول: إنه مؤسس الجدل!

لم يكن لزينون الإيلي فلسفة خاصة لكنه - كما سبق أن ذكرنا - كرس جهده للدفاع عن فلسفة أستاذه التي تتلخّص في قضيتين مهمتين:

1- الوجود واحد.

2- الوجود ساكن، ومعنى ذلك أن الكثرة والحركة ليستا إلا مظهرين خداعين، ونهض زينون للدفاع عن هاتين القضيتين ضد الخصوم مبتكراً منهجاً خاصاً هو الذي سماه أرسطو الجدل، ويعتمد هذا المنهج على التسليم بقضايا الخصوم، ثم يرى ما ينتج عن هذا التسليم؛ فإذا لم يكن الوجود واحداً فإنه يترتب على ذلك أنه كثير، وأن الكثرة إما أن تكون نهائية في العدد؛ أو لا تكون (يعني لا متناهية) والنتيجتان متناقضتان:

أ - إذا كانت الأشياء كثيرة فلا بد أن يكون عددها هو هو لا أكثر ولا أقل، وإذا كان عددها هو هو فهي نهائية.

ب - إذا كانت الأشياء كثيرة فهي لا نهائية العدد إذ بين كل شيئين شيء آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية (وهذه الحجة يسميها أرسطو القسمة الثنائية).

وهناك حجة أخرى في إبطال الكثرة تقوم على أساس أن الأشياء إما أن تكون لا متناهية الصغر أو لا متناهية الكبر، ونتيجة الفرضين خلف محال!

ليس في استطاعتنا أن نتحدث عن الجدل في المنطق الأرسطي من دون أن نتحدث عن فلاسفة اليونان الذين اهتموا قبل أرسطو بالجدل وأولهم زينون الأيلي.



ولقد أورد أرسطو في كتاب «الطبيعة» أربع حجج في إبطال الحركة هي:
الملعب - أخيل والسلحفاة - السهم - الأجسام الثلاثة.

الحجة الأولى: تسير على النحو التالي: لا يمكن اجتياز الملعب أو حلبة السباق؛ لأنه لا يمكن اجتياز عدد من النقاط اللامتناهية في زمن متناهٍ، فلا بد أن تجتاز نصف المسافة قبل اجتياز المسافة كلها، وكذلك لا بد من اجتياز نصف نصف المسافة أولاً، وهكذا إلى ما لا نهاية؛ لأن المسافة تنقسم إلى ما لا نهاية له.

الحجة الثانية: أخيل والسلحفاة، لا يمكن أن يسبق أخيل العداء الشهير السلحفاة بطيئة الحركة؛ إذ إنه لا بد أن يصل إلى المكان الذي بدأت منه السلحفاة تسير، لكن السلحفاة تكون قد تحركت ويجب على أخيل أن يلحقها، وهكذا كلما اقترب منها سبقته.

ونكتفي بهذه النبذة الموجزة لكي ننتقل إلى:

ب - سقراط:

أما سقراط فقد استخدم مصطلح الجدل أو الديالكتيك بأول معانيه «الحوار» أو النقاش في محاولته لتعريف المفاهيم الأخلاقية بصفة خاصة، فما إن يخرج من باب المنزل ويلتقي بأحد الأصدقاء على عتبة الدار، ويلقي عليه تحية الصباح: «صباح الخير يا سقراط!» حتى يسأله الأستاذ المتعطش للحوار: «وهل تعرف معنى الخير؟» فيجيب الصديق: «بغير شك يا سقراط؟»، فيعود إلى سؤال: وما هو؟.. ويظل الحوار سجلاً بينهما حتى تصرخ الزوجة من النافذة: ماذا يا سقراط ألم تذهب إلى السوق بعد؟ ألم تحضر حاجيات المنزل؟ لكن سقراط لا يلتفت إليها، ويواصل الحوار، ولا سيما عندما ينضم صديق أو أكثر إلى حلقة النقاش المنعقدة أمام المنزل، فيتسع نطاق الحوار وتشتد حدته. لكن الزوجة تزداد حنقاً وغضباً، فتذهب إلى داخل الدار لتأتي بدلو مملوء بالماء وتقذف بالماء على رؤوس هؤلاء الأصدقاء المصيرين على مواصلة الحوار أمام دارها وتعطيل الزوج عن

الإتيان بحاجيات المنزل من السوق! لكن سقراط لا يتحرك ولا يبالي، ولا يكف عن الحديث، وكل ما يقوله بهدوء تام وهو ينفذ قطرات الماء التي سقطت على عباءته: لا تكثرثوا أيها الأصدقاء، فهكذا زوجتي كالسماء ترعد أولاً ثم تمطر بعد ذلك!

* * *

كان سقراط يقف ساعات طويلة شاخصاً ببصره إلى السماء متأملاً يحدث نفسه مدعياً أن هناك مَنْ يحدثه، ومن ثم فقد ظهر في تاريخ الفلسفة اليونانية ما سمّي شيطان سقراط.. Socrates Daemon مما شجع بعض

خصومة لا سيما المردة الثلاثة «ميليتس.. Meletus» و«أنيتس.. Anytus» و«ليكون.. Lykon»، على اتهامه بالإلحاد وإنكار آلهة أثينا، وإفساد الشباب، ومن هنا فقد كان يذهب إلى المحكمة في الصباح الباكر حيث التقى ذات يوم بتلميذه «أوطيفرون.. Euthyphro» فيسأله متعجباً: ما الذي أتى بك إلى المحكمة في هذه الساعة المبكرة من النهار؟ أنا أحضر بسبب هؤلاء المردة الذين اتهموني بالإلحاد، ولا أظن أن أحداً قد اتهمك بشيء؟

أما سقراط فقد استخدم مصطلح الجدل أو الديالكتيك بأول معانيه «الحوار» أو النقاش في محاولته لتعريف المفاهيم الأخلاقية بصفة خاصة.

- كلا يا سقراط لكني أنا الذي جئت لأشكو والدي!
- ولم؟
- لأنه ارتكب جريمة قتل؟
- أحسب أن الرجل الذي قتله أبوك كان أحد أقربائك؟
- كلا يا سقراط. بل هو فلاح يعمل في حقننا، وذات يوم اعترته نشوة الخمر فقتل خادماً يعمل في منزلنا، فقبله والدي وسجنه في المنزل، ثم أرسل رسولاً إلى أثينا ليسأل عما يجب عمله في هذه الحالة [أي يستفسر من أحد الكهنة] - وقبل أن يعود الرسول كان الرجل قد مات



من البرد والجوع والأغلال ألا يكون أبي قاتلاً؟ ألا يكون قد ارتكب عملاً
من أعمال الفجور لا التقوى التي تحض عليها الآلهة؟!
وهنا يجد سقراط ضالته، أعني موضوعاً للحوار عندما يسأل تلميذه
«أوطيفرون»:

- وهل أنت تعرف ما التقوى وما الفجور يا أوطيفرون؟
- إن أفضل ما عندي وما يميزني يا سقراط هو دقة علمي بمثل هذه المسائل!
- فيقول سقراط متهكماً: أحسب أن خير ما أصنعه أن أكون تلميذاً لك!
- ويكون أول تعريف له: التقوى: أن تفعل ما أنا فاعل، والفجور أن تفعل ما فعله أبي!
- فيعترض سقراط قائلاً إن تعريف الفضائل يجب أن يكون عاماً ينطبق على جميع الحالات وليس على حالة بعينها!
- فيعود أوطيفرون إلى تعريف آخر: التقوى أن تفعل ما يرضي الآلهة، والفجور أن تفعل ما تكرهه!
- ويعود سقراط إلى الاعتراض بأن الآلهة مختلفون فيما بينهم حول ما يرضيهم: فما ترضى به إلهة الجنس قد لا تقبله إلهة العدل وهكذا..
- ويظل الحوار سجلاً بينهما حتى يعلن أوطيفرون أنه لا يعرف شيئاً عن التقوى والفجور وأنه يجهلها تماماً!

ويُحكّم على سقراط بالإعدام (بأن يتجرع السم) ويبقى في السجن حتى ينفذ الحكم - ويأتيه تلميذه «أقريطون.. Crito» ذات صباح ليخبره أنه رشا السجن، واتفق معه أن يتركك تهرب إلى مدينة أخرى.. فيرفض سقراط فكرة الهرب من السجن، ويسأل تلميذه: هب أن قوانين أثينا جاءت تسألني: لماذا تحاول الهرب الآن وقد نشأت وترعرعت في كنفها قائلةً لي: لقد عشت في أثينا سبعين عاماً متصلة - وهو أمد طويل - فلماذا نكثت بالعهد

الآن؟ ويظل الحوار بينهما موصولاً إلى أن يعترف أقريطون أن من واجب المواطن أن يبقى في مدينته، وأن يحاول تغيير القوانين الجارية لا أن يهرب منها!

ويقول أستاذنا الدكتور زكي نجيب محمود الذي ترجم «محاورات أفلاطون» في ستينات القرن الماضي:

«إن هذا الحوار الصغير مثل رائع للجدل الصحيح؛ إذ ترى فيه كيف إذا سلّمت بالمقدّمة فلا مهرب لك من نتائجها!»¹.

اتخذ أفلاطون للجدل منحى آخر؛ فإذا كان أستاذه قد عبّر عن الجدل في صورته الذاتية، وهي الصورة التي تبدو في التهكم وطرح الأسئلة؛ فقد استخدم أفلاطون الجدل في صورته الموضوعية عندما جعل منه طريقاً إلى المعرفة بالصعود إلى عالم «المثل».

لن نتحدث عن «صغار السقارطة» الذين ظهروا بعد إعدام أستاذهم، وإنما سنذهب مباشرة إلى تلميذ فذ من تلامذته هو أفلاطون؛ فهو كبير وهم صغار!

ج - أفلاطون

اتخذ أفلاطون - أعظم تلامذة سقراط - للجدل منحى آخر؛ فإذا كان أستاذه قد عبّر عن الجدل في صورته الذاتية، وهي الصورة التي تبدو في التهكم وطرح الأسئلة؛ فقد استخدم أفلاطون الجدل في صورته الموضوعية عندما جعل منه طريقاً إلى المعرفة بالصعود إلى عالم «المثل» الذي يعبر عن حقيقة الأشياء، ونحن نجد أفلاطون هنا يميّز بين عالم العقل (عالم المثل) وعالم الحس (عالم الأشياء الحسية). ثم يعود فيقسم كل عالم منهما إلى: نوعين: الأول: «العقل الخالص» و«قوة الفهم»، والثاني: الإحساس، والظلال وما انعكس على سطح الماء والمواد الثقيلة الملساء» على حد تعبيره. والعقل الخالص هو أعلى هذه الدرجات من المعرفة، أما قوة الفهم فهو النوع من العقل الذي تستخدمه الرياضيات. والعقل الخالص هو أعلى النوعين، وما يعنيه هو الأفكار الخالصة وطريقه هو الجدل.

1 - محاورات أفلاطون، ترجمة زكي نجيب محمود، ص 82 (لجنة التأليف).



ويرى أفلاطون أن للجدل طريقتين: **الجدل الصاعد**، و**الجدل الهابط**. فالإنسان يلاحظ الجزئيات ثم يرتفع منها إلى الطبيعة العقلية العامة التي تربط بينها: هذه الشجرة الجزئية وتلك شجرة الأمس، وما قبله وما بعده، إلى أن نصل إلى الشجرة الأصلية؛ أي مثال الشجرة، وهكذا في الحصان والحمار والجمل والقط، وغيرها من الأشياء الحسية، وكل ما يلحظه الإنسان من أشياء في عالم الحس، ثم يرتفع من هذه الكثرة الحسية إلى الوحدة العقلية التي تشملها وتفسرها، ومن هذه الوحدة العقلية إلى معقولات أعلى منها مرتبة. وهكذا يستمر العقل في الارتفاع من الأفراد إلى الأنواع إلى الأجناس حتى يصل في النهاية إلى جنس الأجناس، إلى فكرة هي أعم الأفكار جميعاً وأكثرها حقيقة وأعلاها مقاماً، وهذه الفكرة ليست إلا «مثال الخير» الذي يقوم في العالم المعقول مقام الشمس في العالم المحسوس، ويضفي على المعقولات هذا الضوء الذي تكون به مرئية، والحرارة التي «تكسبها الحياة»¹. ورؤية الخير هي رؤية مباشرة وحس عقلي، وبغير حدوث هذه الرؤية والوصول إلى المبدأ الأعلى لكل الموجودات يظل العقل في تشتت.

لكن هذه العملية لا بد أن تكتمل بعملية أخرى يهبط فيها الإنسان من الأجناس العالية إلى الأنواع التي تدرج تحتها، ثم الأفراد التي يشملها كل نوع، وله أن يسير في هذا الهبوط على منهج التحليل أو باستخدام القسمة الثنائية المستتيرة بحس المثل².

وهكذا يصل بنا أفلاطون إلى القول بأن «الجدل» هو المنهج الفلسفي الأعلى، وهو حجر الزاوية الذي تقوم عليه العلوم، وكان من المقرر أن يكون «الجدل» هو المرحلة الأخيرة في التربية النظامية التي وضعها أفلاطون لفلاسفته الملوك في دولته المثالية³. وعلينا أن نلاحظ أن الجدل عند أفلاطون

1 - A. E. Taylor: Plato the Man and His Work. Methuen. London, 1926, P. 291.

وانظر أيضاً محاوره الجمهورية 511 - ب ص 416 (من ترجمة د. فؤاد زكريا) وكذلك 533 ص 445.

2 - أفلاطون: «محاوره الجمهورية» الكتاب السادس 537 ب.

3 - الموسوعة الفلسفية المختصرة. الترجمة العربية بإشراف د. زكي نجيب محفوظ، دار القلم،

بيروت، ص 162.

منهج عقلي يسير به العقل من المحسوس إلى المعقول من دون أن يستخدم شيئاً حسيّاً، وإنما يسير من فكرة إلى فكرة بواسطة فكرة «بحيث يجتاز جميع مراتب الوجود من أسفل إلى أعلى والعكس - أي صاعداً وهابطاً»¹.

د - أرسطو

إذا كان «الجدل» قد ارتفع على يد أفلاطون إلى مرتبة سامية كعلم ومنهج، فقد هبط عند تلميذه أرسطو إلى معناه الشائع في ذلك الوقت، ولعل هذا هو السبب الذي جعل ميور.. Mure يذهب إلى أن هيغل مدين لأفلاطون

علينا أن نلاحظ أن
الجدل عند أفلاطون
منهج عقلي يسير به
العقل من المحسوس إلى
المعقول من دون أن
يستخدم شيئاً حسيّاً،
وإنما يسير من فكرة إلى
فكرة بواسطة فكرة.

بأكثر مما هو مدين به لأرسطو²؛ فقد جعله أرسطو باباً من أبواب المنطق في كتاب «الطوبيقا.. Topics» أو الموضوع والذي نقله إلى العربية أبو عثمان الدمشقي، ونشره الدكتور عبد الرحمن بدوي مع بقية أجزاء المنطق الأرسطي في ثلاثة مجلدات (وجاء الجدل في الجزء الثاني من هذه الأجزاء ابتداءً من ص 489 تحت عنوان: المقالة الأولى من كتاب طوبيقا نقل أبي عثمان الدمشقي - الجدل وموضوعه - الحجج)³.

والجدل عند أرسطو ضرب من القياس أو الاستقراء، والقياس هو الاستدلال أو هو قول قُدِّم له بمقدمات فلزمت عنها نتيجة بالضرورة، وإذا كانت المقدمات صادقة كانت النتيجة صادقة أيضاً، ويشترط فيه أن يتألف من ثلاثة حدود: حد أصغر ويرمز له بالحرف (ص)، وحد أكبر ويرمز له بالحرف (ك)، وحد أوسط ويرمز له بالحرف (و)؛ مثل:

1 - يوسف كرم «تاريخ الفلسفة اليونانية»، لجنة التأليف والترجمة والنشر عام 1953، ص 69 وأيضاً ص 71.

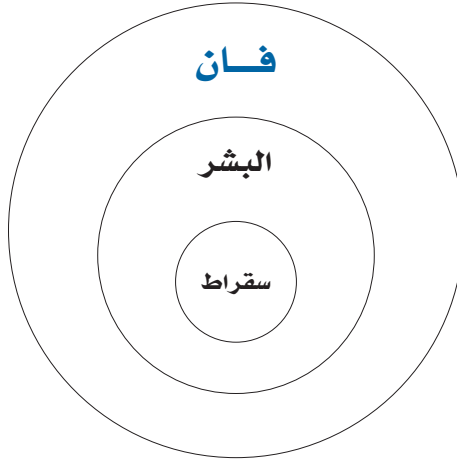
2 - Mure (G.R.G): «Introduction to Hegel» Oxford Press, London 1950.

3 - نشره الدكتور بدوي عام 1980 في طبعتين، الأولى في وكالة المطبوعات بالكويت، والثانية في دار القلم، بيروت.



كل إنسان فان فان مقدمة كبرى (حيث تتضمن الحد الأكبر)
 وسقراط إنسان مقدمة صغرى (حيث تتضمن الحد الأصغر)
 □ سقراط فان نتيجة ص - ك

ويمكن عرض البرهان ذاته على هذا النحو البياني فيما يرى جون ديوي¹:



وعلينا أن نلاحظ ما يلي:

- 1- الحد الأوسط يظهر في المقدمتين ويختفي في النتيجة.
- 2- الحد الأوسط هو أداة الربط بين الحدين الأصغر والأكبر.
- 3- تتألف النتيجة باستمرار من الحدين الأصغر والأكبر.
- 4- للقياس أربعة أشكال حسب وضع الحد الأوسط.
- 5- ما أوردناه في القياس السابق هو الشكل الأول.

1 - راجع جون ديوي في كتابه «أنواع من التفكير» ترجمة فاطمة الشابي، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام، ص 95

فأين الجدل هنا؟ الواقع أن الجدل ضرب من القياس يعرفه أرسطو بقوله: «القياس الجدلي هو الذي ينتج من مقدمات ذائعة»¹ أو مشهورة أو ترددها العامة. وهذه الصورة من «الجدل» تطبق تماماً على ما كان يفعله سقراط عندما يتناول تعريفات الفضيلة كالتقوى والفجور، والخير والشر، والعدل والظلم.. إلخ. وقد سبق أن عرضنا لها وقدمنا الكثير من الأمثلة للحوار السقراطي مع التلاميذ. وهكذا كان الجدل أيضاً عند زينون الأيلي في مناقشته لخصوم أستاذه بارمنيدس، ويضيف أرسطو إلى هذه الأنواع من الجدل «القياس الذي تكون مقدماته ذائعة في الظاهر وليست ذائعة على الحقيقة»²،

الواقع أن الجدل ضرب من القياس يعرفه أرسطو بقوله: «القياس الجدلي هو الذي ينتج من مقدمات ذائعة» أو مشهورة أو ترددها العامة.

وهو يسميه «المراء» أو التمويه، ومع ذلك فإن أرسطو يرى في الجدل ثلاث فوائد: «فتقول: إنه ينتفع به في ثلاثة أشياء: في الرياضة، وفي المناظرة، وفي علوم الفلسفة»³. أما الرياضة فالمقصود بها الرياضة العقلية أو ممارسة الذهن لبعض العمليات العقلية التي تعمل على تنشيطه. وفضلاً عن ذلك فهو منهج يستطيع العالم والجاهل أن يمتحن بموجبه مدّعي العلم. بل إن له فائدة علمية هي أنه يساعد على كشف المبادئ

الأولية في علم من العلوم. ويبحث الآراء العامة وآراء العلماء في موضوع ذلك العلم، فإن العلوم الجزئية لا تبرهن بنفسها على مبادئها الخاصة، فامتحان الآراء يعين العقل على الاقتراب من المبادئ ووضع المسائل.

ولم يخرج الجدل عن معناه عند أرسطو سوى أن الرواقية والعصور الوسطى كانوا يطلقون على الجدل اسم المنطق.. Logic ثم ظهر الجدل من جديد بمعناه الأرسطي (المقدمات الظنية غير الكافية أو المحتملة) عند كانط.. Kant في العصر الحديث!

1 - منطق أرسطو، الجزء الثاني حققه وقدم له الدكتور عبد الرحمن بدوي، ص 48.

2 - المرجع السابق، ص 49.

3 - A.R. Lacy: «A Dictionary of Philosophy» Routledge, Kegan Paul London. 1976.

المرحلة الثانية: الفكر الإسلامي

لن نقف طويلاً عند الجدل في الفكر الإسلامي؛ لأنه لم يخرج عن الحدود التي رسمها المعلم الأول (أرسطو)، فقد جاء في معجم المصطلحات الإسلامية¹ مادة الجدل Aljadal ما نصّه مترجماً: «عنوان عربي أطلق على الكتاب الخامس في منطق أرسطو، انظر الطوبيقا.. Topica»⁽¹⁾. وعندما يصنف ابن خلدون العلوم وأصنافها في الباب السادس من مقدمته يضعه باباً من أبواب المنطق في القسم رقم 24 - إذ يقول: «وكتاب الجدل هو القياس المفيد في قطع المشاغب وإفحام الخصم، وما يجب أن يستعمل فيه من المشهورات، ويختص أيضاً من جهة إفادته لهذا الغرض بشروط أخرى وهي مذكورة هناك. وفي هذا الكتاب يذكر المواضيع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه وفيه عكوس القضايا»².

ويقول الجرجاني في تعريفاته (باب الجيم): «الجدل هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم، وإقحام مَنْ هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان³. ويقول عن «الجدل»: «عبارة عن مرء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها»⁴.

أما علم الكلام الذي يُسمى علم أصول الدين أو علم التوحيد أو اللاهوت... Theology في الغرب فقد سمي بهذا الاسم في الفكر الإسلامي؛ لأنه بمثابة المنطق للفلاسفة، أو لأنه يعنون أحياناً بالكلام في كذا.. أو لأن مسألة الكلام كانت أشهر أجزائه⁵.

ولقد بدأت الفرق الإسلامية من ميدان القتال: المسلمون يقتل بعضهم بعضاً، فما الحكم على مُسلم يقتل مسلماً؟ أيكون كافراً أو يظل مؤمناً؟ أم

1 - Dictionary of Islamic Philosophical Terms.

2 - ابن خلدون المقدمة: الباب السادس، فقرة 24.

3 - كتاب التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت عام 1969، ص 79.

4 - المرجع السابق نفسه.

5 - د. مصطفى عبد الرازق «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» سلسلة العلوم الاجتماعية - الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 2007، ص 271.

هو في منزلة بين الإيمان والكفر؟ أو أن الأدنى إلى الصواب أن نرجئ الحكم لله يوم القيامة؟! وهكذا نجد أن نشأة الفكر الإسلامي لم تكن آتية من الخارج بل من دماء المسلمين على أرض القتال فظهرت الفرق الإسلامية: الشيعة والأشاعرة، والمعتزلة، والمرجئة... إلخ كل يدلو بدلوه!¹

ولم يكن الجدل عندهم على خلاف الجدل عند الأقدمين، لا سيما أرسطو. استخدام العقل في نقد الأقوال الشائعة التي تدور حول قضايا

يقول الجرجاني في تعريفاته (باب الجيم):
«الجدل هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم، وإقحام مَنْ هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان.

العقيدة وهو خلاف الجدل أو المراء أو المغالطة أو التمويه... إلخ، إذ يعتمد الجدل على البراهين العقلية فيما يتعلق بالعقائد الإيمانية وهي من أجمل الأدلة على وجود الله اعتماداً على الأقوال الشائعة (مما يذكر بحوارات سقراط مع تلاميذه). وما ذكره الزميل الفاضل الدكتور فيصل بدير في كتابه «علم الكلام ومدارسه» في الملحق رقم 3 في نهاية الكتاب حيث يقول ابن سهيل البلخي²:

1- من الدليل على إثبات الباري سبحانه: وَلَهُ النُّفُوسُ - أي جزعها - وفزع القلوب إذا حزنت الحوادث إليه اضطراراً³؛ إذ لا يوجد مضطر - وقد عضته تائبة، أو لدغته ناكبة - يفزع إلى حجر أو شجرة أو مدد أو شيء من الخلائق إلا إليه، ويدعوه على هو معروف عنده من اسم أو صفة، هذا مشاهد عياناً كما تفزع النفس عند المكاره المخيفة إلى طلب المهرب والنجاة، وكما يفزع الطفل إلى ثدي أمه ضرورة وخلقاً».

1 - ولهذا قيل إن المسلمين بعد أن اقتتلوا بالسيوف، اقتتلوا بالأفكار.

2 - راجع فيصل بدير «علم الكلام ومدارسه» مكتبة الأنجلو المصرية، الملحق رقم 3.

3 - كقولنا مثلاً: يا رب أو يا ساتر أو يا معين أو يا منج... إلخ، نقلاً عن كتاب فيصل السابق.



2- ومن الأدلة على إثبات الباري تعالى أنه لا يخلو لسان أمة من الأمم في أقطار الأرض وآفاقها إلا وهم يسمونه بخواص من أسمائه عندهم، ومن ذلك قول العرب له: الله، وقول فارس: هرمز، وقول الأعاجم: خذاي فخذني وند، وقول السند والهند: شيتابت مهادير، وقول الزنوج: ملكوي وجلدي، وقول الترك: بيرتكري، وقول الروم والقبط والحبشة: لاهاريا قدوساً، وقول اليهود بالعبرية: إيلوهيم..

3- ومن الأدلة على إثبات الباري تعالى: هذا العالم بما فيه من عجيب النظم وبديع الترتيب، ومُحكَم الصنعة، ولطيف التدبير والإتقان.

4- ومن الدليل على إثبات الباري تعالى: تفاضل الخلق والطباع والهمم والإرادات والصور بالأخلاق، وتمايز الأشخاص والأنواع من أجناس الحيوان والنبات، فلو أنها مَكُونَةٌ بالطبع لاستوت أحوالها وتكافأت أسبابها، وكانت تكون في أنفسها مختارة، ولما يوجد في أنفسها ناقص ولا عاجز، ولا مذموم ولا متأخر...

ويستمر ابن سهيل البلخي فيقول:

لقد قرأتُ في بعض كتب القدماء: أن ملكاً من الملوك سأل حكيماً: ما الدليل على وجود الله؟! فأجاب سؤالك نفسه عنه؛ لأن السؤال لا يقع على العدم (أو لا شيء)!

- قال الملك: ثم ماذا؟!!

- قال: شكُّ الشاكين فيه، فإنما يُشكُّ فيما هو موجود لا فيما هو غير موجود.

- قال الملك: ثم ماذا؟!!

- فقال الحكيم: حدوث الأشياء، وتنقلها على غير مشيئتها.

- فقال الملك: زدني.

- فقال الحكيم: الحياة والموت اللذان يسميهما الفلاسفة النشوء والبلبي، فلستُ واجداً أحداً أحيا نفسه، ولا حياً إلا كارهاً الموت!

- قال الملك: زدني!
- قال الحكيم: الثواب والعقاب على الحسنه والسيئة الجاريان على السنة الناس!¹

ولو كان سقراط هو الذي يحاور هذا الحكيم مستخدماً طريقتة في الجدل لاعترض اعتراضات كثيرة على هذه الأدلة.

فهو يعتمد في أحيان كثيرة على أن الاسم يدل على وجود مسمى وهذا خطأ واضح؛ فنحن كثيراً ما نطلق مسميات على كائنات لا وجود لها، فقد

يعتمد سقراط في أحيان كثيرة على أن الاسم يدل على وجود مسمى وهذا خطأ واضح؛ فنحن كثيراً ما نطلق مسميات على كائنات لا وجود لها، فقد كان العرب على سبيل المثال يقولون: «إن المستحيلات ثلاثة: الغول، والعنقاء، والخل الوفي!». كما يطلق الغربيون اسم «بابا نويل» والأمريكيون عليه اسم «سانتا كلوز» على كائنات خرافية تجلب السعادة والهدايا للأطفال في أعياد الميلاد! وأما الدليل على وجود الله اعتماداً على ما يُسمى بالقبول العام للجنس البشري أو إجماع الأمم قوشخ؛ وإلا فهل يكون تاريخ الإنسان لغواً، وإجماع الناس على وجود الله باطلاً؟ وكيف يمكن لإنسان أن يقاوم هذه الفكرة فيقول: إنني أنا وحدي سوف أعارض كل ما تصوره الناس على أنه حق وما شعروا وأمنوا به؟ ولهذا الدليل صور كثيرة، منها أنه تحول إلى وجود غريزة دينية عند الإنسان، وشعور فطري بذلك.. إلخ. غير أن «جون لوك» (1632 - 1704) .. J.Locke - قبل هيجل بما يقرب من قرن ونصف من الزمان - ناقش هذا الدليل في معرض مناقشاته للأفكار الفطرية، وعدّه ظاهر البطلان؛ لسببين:

الأول: - أن هناك مجموعة من الملاحظة القدماء والمحدثين على السواء، صحيح أنهم قلّة؛ لكنهم قلّة كافية، لتكذيب هذا الإجماع المزعوم.

1 - ابن سهل البلخي، ص 51.

الثاني: إن الرحلات التي قام بها البحارة إبان المكتشفات الجغرافية كشفت عن وجود أمم بأكملها ليس لديها أدنى فكرة عن وجود الله. ويمكن إضافة أن الاعتماد أحياناً على العادات والتقاليد سيُبعد هذه الأدلة عن السياق العقلي¹.

المرحلة الثالثة: الفلسفة الحديثة والمعاصرة

أ - هيغل (1770 - 1831)

كانت الحياة في عصر هيغل تموج بتيارات متضاربة ومتلاحمة حتى انصهر الفيلسوف الشاب في دوامتها منذ طفولته المبكرة، وكأن الدهاء التاريخي الذي تحدّث عنه فيلسوفنا قد أبى إلا أن يصنع هذا العقل العظيم في فترةٍ من أشدّ فترات التاريخ الحديث حرجاً وعنفاً وخصوبة، فيتقاسم القرنان الثامن عشر والتاسع عشر حياته مناصفة (1770 - 1831) بحيث يعيش في مرحلة انتقال بين هذين القرنين بكل ما يحمله الانتقال من هدم وبناء، وتضارب وتضاد، فهو يشهد اندلاع الثورة في فرنسا، ويرقب بحذر تطاحن النظم الاجتماعية: النظام الإقطاعي من جهة، والنظام البرجوازي من جهة أخرى. غير أن الثورة الفرنسية لم تكن سوى ظاهرة تاريخية كغيرها من الظواهر، فمع ما خلفته من حطام وأنقاض - وربما بسببه - تستمر الحركة العامة ويواصل التاريخ سيره، فهي ليست إذناً سوى مثل يعكس تناقضاً أصيلاً وتمزقاً جذرياً هو لُحمة هذا الوجود وسدّاه!

وإذا كان التناقض بارزاً في ميدان النظم الاجتماعية؛ فهو ظاهر كذلك في سير الحياة الثقافية بصفة عامة، فها هي ذي شمس الكلاسيكية بقواعدها الجامدة توشك على الغيب، بينما خيوط الرومانسية بعاطفتها المشتعلة تتجمع في الأفق!

أَيكون عبثاً هذا الذي تراه في العالم من متناقضات؟! هب أننا سلّمنا بذلك فهل تستطيع إنكار هذه الظواهر المتناقضة؟ كلا! وطالما أنها موجودة

1 - قارن كتابنا: مدخل إلى الميتافيزيقا، دار نهضة مصر، ص 217.

فهي في حاجة إلى تفسير؛ إذ لا يكفي أن تقول عن السراب: إنه وهم، بل يتحتم عليك أن تقدم لهذا الوهم تفسيراً مقبولاً، والتفسير المقبول هذا الذي يقبله العقل ويرضاه، وليس في استطاعتنا أن نستخدم منهج الحسي المشترك؛ لأنه ليس طريقاً منهجياً بمعنى الكلمة؛ فقد سبق أن قلنا إن ما نريده في تفسير هذه الظواهر هو المنهج الذي يقبله العقل لا الحسي. ولا يصلح كذلك منهج الحدس الصوفي الذي يأخذ به الصوفيون وأشباه المثاليين فهو لا يستطيع فهم حقيقة التناقض الذي يسري في العالم، فما هو ذا «ياكوبي»

**إذا كان التناقض بارزاً في
ميدان النظم الاجتماعية؛
فهو ظاهر كذلك في سير
الحياة الثقافية بصفة عامة،
فها هي ذي شمس الكلاسيكية
بقواعدها الجامدة توشك
على الغيب، بينما خيوط
الرومانسية بعاطفتها
المشتعلة تتجمع في الأفق!**

الصوفي العظيم يجأ بالشكوى: «النور في قلبي، لكني كلما حاولت إبرازه للفهم خبأ السراج وانطفأ!». ولا يصلح كذلك في تفسير هذه الظواهر المتناقضة منها «العلوم الطبيعية» و«العلوم الرياضية»؛ فالمنهج الفلسفي الصحيح هو المنهج العقلي أو هو المنهج الذي يعبر عن نسيج العقل نفسه، ونسيج العقل مجموعة هائلة من المقولات التي ترتبط فيما بينها ارتباطاً ضرورياً، وتتوالد توالداً ذاتياً، وهو المنهج الجدلي الذي يدرسه المنطق بمعناه عند هيغل!¹

المنهج الجدلي: وهو منهج يسير من فكرة إلى فكرة إلى فكرة... إلخ، الفكرة الأولى تمثل القضية التي تظهر نقيضها، ويسير النقيض إلى المركب الذي يجمع بينهما. فالمثلث الأول في المنطق الهيجلي يبدأ من الوجود الخالص الذي لا سمة له ولا تعين ولا تحديد ولا صفة؛ لأنه «وجود خالص»، ومن هنا فهو يتنقل في الحال إلى العدم الخالص، الذي لا سمة له ولا تعين، وما هو؟ لا نعرف سوى أنه شيء موجود، فحسب، وهكذا يسير العقل سيراً جدلياً من الوجود إلى العدم، لكن العدم يعود فينتقل إلى الوجود وهذا الاستمرار هو مركب الوجود والعدم وهو الصيرورة.

1 - راجع كتابنا: المنهج الجدلي عند هيغل.

الصيرورة إذاً هي وجود دَخَلَهُ السلب (أو العدم)، فقطعه إلى شرائح هي الوجود المتعين، وهذا الوجود المتعين هو «شيء ما» والشيء المحدد هو ما له حد، وهذا هو المثلث الثاني في الجدول الهيجلي، أما الحد فهو يعني التناهي؛ لأن الحد هو كذلك بين شيئين فسور حديقتي حد بين حديقتي والشارع العام، ومعنى ذلك أن الحد هو التناهي؛ لأن سور حديقتي ينتهي عندما يبدأ الشارع، والتناهي يعني الأخيرة، فهذا الحد ينتهي بشيء آخر، وهذا الشيء الآخر يؤدي إلى شيء ثالث.. وهكذا إلى ما لا نهاية. غير أن ذلك هو اللامتناهي الزائف؛ لأنه لا يتوقف أبداً؛ وإنما ينتقل من حد إلى حد آخر إلى ثالث فزابع فخامس من دون توقف على الإطلاق؛ في حين أن اللامتناهي الحقيقي ينتهي عندما يعود إلى نفسه، وهذا هو الوجود للذات أو «الأنا» الذي يعود إلى نفسه باستمراراً¹.

ب - الوجودية

وهي الفكرة التي نجدها عند جان پول سارتر (1905 - 1980) في مطلع كتابه الضخم «الوجود والعدم.. L'Être et Le Néant» وهو يفرق بين «الوجود في ذاته.. L'Être en soi»، و«الوجود من أجل الذات.. L'Être Pour Soi»؛ أي وجود الأشياء الجامدة التي تنتقل فيها من شيء إلى شيء، والوجود من أجل الذات التي تعود فيها إلى ذاتك الأولى فقط كما هي فلا تتطور أبداً، أما الثانية فهي يمكن أن تعلق على ذاتها فتبقى نفسها مشروعاً للوجود فتعمل بحيث تحقق هذا المشروع! يُروى عن نابليون بونابرت أنه كان - وهو طفل - يرتدي بدلة «جنرال عسكري»، ويقف أمام المرأة ليعظم نفسه وهو يقول: «لا بد أن أكون جنرالاً!». وأصبح إمبراطوراً يغير خريطة أوروبا وليس جنرالاً فحسب!

لقد أخذ «سرن كيركفور (1813 - 1855) الفيلسوف الدانماركي ورائد الوجودية المؤمنة ثلاثية هيغل الجدلية، وقسّم بها الشخصية البشرية كالآتي:

1 - انظر الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه «الزمان الوجودي».

أولاً: الشخصية الحسيّة، ويمثلها من دون جوان الشخصية التي لا تهتم إلا بالنساء والجري وراء اللذة.

ثانياً: الشخصية الحادة المستقيمة، ويمثلها القاضي فلهلم الذي لا يهيمه في هذه الدنيا سوى تطبيق القوانين في شيءٍ غير قليلٍ من الصرامة. وهي نقيض الشخصية الأولى.

ثالثاً: الشخصية المتدينة (باعتباره هو نفسه أحد أقطاب الفكر الديني)، ويسمّيها أحياناً فارس الإيمان، وهي عنده تتمثل في شخصية نبي الله إبراهيم الذي أقدم على ذبح ابنه تلبية للأمر الإلهي، الذي هو أعلى أمر

**الضرورة إذاً هي وجود
دَخَلَهُ السلب (أو العدم)،
فقطعه إلى شرائح هي
الوجود المتعين، وهذا
الوجود المتعين هو «شيء
ما» والشيء المحدد هو ما
له حد، وهذا هو المثلث
الثاني في الجدل الهيجلي.**

يصدر للإنسان، فهو بالقطع أعلى من الأمر الأخلاقي، فإذا كانت الأخلاق تمنع الأب أن يقتل ابنه لأي سبب، فإن الأمر الإلهي يأتي ليكون أعلى من جميع الأخلاقيات. لم تكن المسألة الرغبة في قتل الابن، بل اختبار «فارس الإيمان» في مدى طاعته للأمر الإلهي مهما تكن قسوته!!
وفضلاً عن ذلك فقد اهتم كيركفور «بجدل» سقراط وما فيه من تهكم لدرجة أنه جعل «مفهوم التهكم» رسالة الماجستير التي ناقشها في 29 سبتمبر عام 1841¹.

وكان يعارض فيها تصوّر هيغل للتهكم السقراطي الذي جعله جدلاً ذاتياً. واعتمد كيركفور في مناقشته على ما كتبه هيغل في كتابه «محاضرات في تاريخ الفلسفة»!

ج - الماركسية

لن تجد بين مؤسسي الماركسية مَنْ يجادل في الأثر الذي تركه الجدل الهيجلي على فكر ماركس، وهو أثر يتعدى الحدود الضيقة التي يعرفها اليوم

1 - لخصناها في الجزء الثاني من كتابنا «سرن كيركفور» رائد الوجودية.

كثير من الماركسيين؛ بل ستجدهم مجمعين على أن الجدل الماركسي ليس إلا محاولة لتطبيق الجدل الهيجلي في ميادين جديدة، وهم يعترفون بذلك صراحة من دون أن يجدوا في الاعتراف حرجاً ولا غضاضة؛ «فقد كان ماركس وإنجلز يريان في جدل هيغل أوسع مذهب من مذاهب التطور، وأوقرها مضموناً وأشدها عمقاً، وأثمن اكتساب حقيقته الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، وكانت كل صيغة أخرى لمبدأ التطور تتراءى لهما وحيدة الجانب، فقيرة المضمون تشوه وتفسد السير الواقعي للتطور... في الطبيعة والمجتمع»¹. وكان ماركس يقول دائماً: «إن الإطار المثالي الذي غلّف الجدل الهيجلي لم يمنع هذا الرجل مطلقاً من أن يكون أول مَنْ عرض الصورة العامة للجدل بطريقة واعية شاملة»².

أما القوانين الثلاثة للجدل فهي مأخوذة بأسرها من الجدل الهيجلي:

القانون الأول: التغير من الكم إلى الكيف والعكس

فالتغيرات حدث في العالم هي انتقال من التغيرات الكمية إلى التغيرات الكيفية والعكس، وهي فكرة أساسية في الجدل الهيجلي ترى أن التغيرات الكمية تحدث في البداية بطيئة، ولذا لا أثر لها؛ لكنها إذا زادت فإن الكيف يتغير: تخيل نفسك جالساً على شاطئ سرعة، ورحت تقذف بحجارة صغيرة في مجرى الماء فإن المجرى لا يتأثر؛ لكن لو تخيلت أن هذه الحجارة الصغيرة أصبحت كتلة ضخمة فإنها في هذه الحالة تتحول إلى سد يمنع المياه من التدفق، ويجعل المارة يعبرون عليه إلى الضفة الأخرى! وهكذا يتحول الكم إلى كيف!

القانون الثاني: صراع الأضداد وتداخلها

إذا كان العالم - بما فيه من ظواهر - في حركة مستمرة وتغير دائم لا ينقطع؛ فإن سبب هذه الحركة هو هذا التناقض الكائن في الأشياء، ومعنى

K. Marx: Capital, Vol. 1, P. 40.

- 1

K. Marx, F. Engels: Selected Work, Vol.1, P. 36.

- 2

ذلك أن العلة الأساسية في تطور الأشياء لا توجد في خارجها؛ وإنما تكمن في جوف هذه الأشياء ذاتها. فالطبيعة المتناقضة هي خاصية ماهوية للأشياء، وكل ظاهرة تحوي في جوفها متناقضان متصارعة، وصراع الأضداد هذا هو الذي يولد الحركة ويبعث التطور، ولا يمكن أن تتصور أي شكلٍ من أشكال الحركة من دون أضداد.

القانون الثالث: نفي النفي

كان ماركس يقول دائماً:
«إن الإطار المثالي الذي
غَلَّفَ الجدل الهيجلي لم
يمنع هذا الرجل مطلقاً
من أن يكون أول مَنْ عرض
الصورة العامة للجدل
بطريقة واعية شاملة».

يمكن القول بأن سير التطور كله عبارة عن سلسلة من نفي النفي، كل مرحلة تنفي سابقتها، ثم تنفيها هي نفسها مرحلة ثالثة وهكذا. غير أن هذا النفي لا يعني هنا الفناء، وإنما كل مرحلة تحفظ وتسلب في وقتٍ واحدٍ بالمرحلة السابقة، فالنفي الجدلي هو نفي واحتفاظ معاً، هدم وتطور أبعد، ولا يكون النفي جدلياً إلا إذا كان مصدراً للتطور؛ أي إذا احتفظ بالعناصر الأساسية في المراحل

السابقة، وهذه العملية تحدث في جميع المجالات: في الطبيعة، والمجتمع، والتاريخ، وتاريخ الفلسفة.. إلخ. ونفي النفي يوجد بالفعل في مملكتي النبات والحيوان، بالإضافة إلى أن علم الجيولوجيا كله عبارة عن سلسلة من نفي النفي. ولا تغلت الرياضة من هذا القانون؛ خذ مثلاً: (1) لو أننا سلبناه لكان عندنا (-1)، ولو أننا من جديد عدنا إلى سلب هذا السلب نفسه بأن ضربنا (-1×1) لكان عندنا (1²)؛ أي العدد الأصلي الموجب، ولكن في صورة أعلى!

تلك هي القوانين الجدلية الثلاثة التي لخص فيها «إنجلز» الجدل الهيجلي، وهي القوانين التي تتردد في كل الكتب الماركسية على أنها القوانين الأساسية للجدل الماركسي، فكيف يقال: إنها تعارض الجدل



الهيغلي! لقد صدق لينين عندما قال: «إنه يستحيل استحالة قاطعة أن نفهم رأس المال لكارل ماركس - لا سيما الفصل الأول منه - ما لم ندرس منطق هيغل ونفهمه بأكمله، ولهذا السبب فقد مضى نصف قرن من الزمان، ولم يفهم ماركس واحدٌ من الماركسيين»¹

هذه نبذة سريعة عن الجدل Dialectics وتطوره عبر تاريخ الفلسفة. أما أثر الجدل الهيغلي في الهيغلية الجديدة في إنجلترا وأمريكا، وأثره في الهيغليين الشبان؛ فهو حديث يحتاج إلى مقال منفرد نرجو أن يكون قريباً! وأما مَنْ أراد المزيد من المراجع فعليه العودة إلى كتابتها «المنهج الجدلي عند هيغل». وقد طبع أكثر من طبعة في دار المعارف بمصر وغيرها، وكذلك في بيروت!

V. Lenin: Marx, Engels, Marxism, P. 40.